# الفصل العاشر

اقترب موعد الفصل الدراسي الثاني، ولم يقل والدي إنّني سأبقى في البيت لأنّه لا يملك الرسوم، حتى إنّه أعطاني في ظهيرة أحد الأيام بضع كواتشات لأشتري دفتراً جديداً من نوع ليون، إضافة إلى قلمي رصاص. وكانت والدتي قد اشترت قطعة كبيرة من صابون مالوا، فأخرجت، قبل بضعة أيام من بدء الدراسة، نصف عجلة الجرّار، ثمّ فركت الزي المدرسي حتى ذابت البقع الصُّفْر في الماء الكثيف الرغوة. كان ذلك بالنسبة إليّ إشارة إلى عودة الأمور إلى طبيعتها مجدَّداً. يمكنكم أن تتخيّلوا كيف مرّت الأسابيع الثلاثة ببطء؛ لأنّني كنت أحلم بالمدرسة في كلّ دقيقة.

في الليلة التي سبقت أول أيام الدراسة، كنت متوتّراً جدّاً، وبقيت مستيقظاً ساعات عدّة أستمع إلى النمل الأبيض على السطح. وقد فرحت؛ لمعرفتي أنّني سأستيقظ على شيء غير الزراعة. كنت أشتاق كثيراً لروتيني المُحبَّب في ارتداء ثيابي استعداداً للمدرسة، ومقابلة أصدقائي هناك. ولكن، انتابني شعور بالقلق في خضم ذلك الشعور الجميل:

– ماذا لو كانت دراستي الذاتية غير كافية، وكان أصدقائي متقدِّمين عليَّ كثيراً؟

– هل سيسمحوا لي بنسخ ملخّصاتهم؟

– والآن، وقد انتهت المجاعة، هل سيكون أكبر الأولاد سنّاً في انتظارنا؟

– مَنْ منهم نجا بعد موجة الجوع أصلاً؟

عندما ظهر غيلبرت من بين الأشجار في اليوم اللاحق، شعرت بسعادة غامرة لرؤيته، ودار بيننا الحوار الآتي:

– غيلبرت، بو؟

– بو!

– حاد؟

– حاد!

– تمام؟

– تمام! عوداً حميداً يا صديقي، من الجيد أن نسير معاً مرّة أخرى.

– شكراً يا غيلبرت، أنا سعيد لأنّني هنا.

كان من الرائع العودة إلى المدرسة مع أصدقائي مجدّداً، ومخالطة الأولاد الفكاهيين والمسليين كافة. وقد سُررت بمشاهدة كثير من أصحاب الوجوه المألوفة. ومع أنّنا (الطلاب) كنّا لا نزال نحيفين نتيجة الجوع (وهو حال لن يتغيّر قبل الحصاد)، فإن صحتنا كانت تتحسّن بصورة تدريجية. ولكن، كان هناك بعض المفقودين، فسألت:

أين جوزيف الذي يدرس في المستوى الثاني؛ صاحب البشرة الفاتحة والشعر القصير؟ لقد كنت معجباً بذلك الفتى.

أجابوا: **ألم تسمع بالخبر؟ لقد توفي.**

مات بعض الآخرين أيضاً في أثناء المجاعة، لكنّهم كانوا من صفوف أخرى. لذا، لم أكن أعرفهم.

وعودة على ذي بدء، فقد تحقّقت مخاوفي وظنوني؛ إذ وجدت نفسي متخلِّفاً عن بقية الطلاب في كلّ شيء: الجغرافيا، والزراعة، والدراسات الاجتماعية، وكلّ شيء درسته في المكتبة. كان زملائي يدرسون الرسوم البيانية، والمتغيّرات، والأسماء العلمية للحيوانات. لم أكن أعرف أيّاً من تلك الأمور. لذا، فقد كافحت بشدّة أول أسبوعين، ونسخت الملخّصات

قـدر الإمـكان، مع محاولة متابعة سير الدروس مرّة أخرى. لقد مرّت مدّة طويلة تخلّلها كثير من الأمور.

شارفت مدة السماح لدفع الرسوم على الانتهاء بعد نحو عشرة أيام، فبدأ القلق يتسلّل إلـى نفسـي. كان هنالك شيء لم أفهمه؛ فوالدي كان يعـرف أنّ أوان الدفع قد حان، لكنّه لم يذكر شيئاً عن الموضوع. فزاد قلقي، وكنت خائفاً من قول أيّ شيء. فكلّ ما قلناه بهذا الشأن كان حديثاً عابِراً جرى في الحقول، في ظهيرة أحد الأيام:

– كيف المدرسة؟

– الأمور على ما يرام، لكنّني متأخِّر بعض الشيء. أعتقد أنّني سألتحق بالركب مع مرور الوقت.

– حسناً، ابذل جهدك فحسب.

بـدت تلك المحادثة عادية، لكـنّ ذلك لم يمنع الشعور بالغثيان الذي كان يراود معدتي كلّمـا ذهبت إلى المدرسة. وبعد مرور أسبوعين على بـدء الدراسة، تجمّعنا في غرفة صفية فارغـة استعـداداً للطابور الصباحي، ثمّ وجَّه لنا السيد دبليـو. إم. بهيري كلمة، وهو يرتدي سترته وربطة عنقه المعتادتين، قال فيها: **يوم الإثنين هو آخر موعد لدفع الرسوم. ويتعيّن على الطلاب الذين لم يدفعوا رسوم الفصل الأول دفعها أيضاً من دون تأخير.**

كان الأمـر يجـري بتلك الطريقة؛ فمـع أنّني انسحبت من المدرسـة الفصل الماضي، فإنـه يتعيّن عليَّ دفع رسومه إذا أردت إكمال الدراسـة. وقد بلغت رسوم الفصلين نحو ألفي كواتشـا. لم أكن قد استوعبت ذلـك الأمر بعدُ، ولا أعتقد أنّ والـدي استوعبه أيضاً؛ إذ كان توفيـر مبلـغ ألفي كواتشـا مستحيلاً في ظلّ الأوضـاع التي كنّا نعيشها. عرفـت أنّ أمري قد انتهـى. ولكن، عوضاً عن البقاء في البيت وطلب المال مـن والدي، فقد حاولت الذهاب إلى المدرسة بالمجان في الأسابيع اللاحقة.

كان علـيَّ حسـاب خطواتي بدقـة؛ إذ عقد السيد دبليو. إم. بهيـري الطابور الصباحي يومي الإثنين والجمعة داخل الغرفة الصفية نفسها، ثمّ قرأ بصوت عالٍ أسماء الطلاب الذين

دفعـوا الرسوم، ليقول لهم: **اذهبوا إلى صفوفكم مباشـرة**. أمّا بقية الطلاب فلم يسمح لهم بدخول صفوفهم إلّا بعد إظهارهم إيصالاً ماليّاً يُثبِت دفع الرسوم. لقد كان موقفاً محرجاً.

تعرّضـ جيفـري لمثل هذا الذلّ قبل عامين. لذا، فقد كنت متنبّهاً لهذا الأمر. ففي أول أيـام التفقّد، وصلت المدرسة مع غيلبرت كالمعتاد. ولكن، ما إن بدأ بقية الطلاب يتجمّعون فـي الطابـور حتى دخلـت مرحاضاً عند طرف ساحـة المدرسة. اختبأت هنـاك، ثمّ أخذت أسترق النظر من نافذة صغيرة. وحين سمح المدير للجميع بالذهاب إلى صفوفهم، انسللت ودخلت مع الحشود مثل قطّ في قنّ دجاج.

وبمجـرّد دخولي الصف، كنت أجلس فـي الزاوية مُطأطِئ الرأس. كنت خائفاً جدّاً من أن ينفضـح أمـري. لذا، لم أكن أطـرح أيّ أسئلة لكـي أُبعِد الشكوك عنّي. قلـت لنفسي: إنّ بإمكاني الاستماع والتعلّم ما التزمت الصمت. كنت على يقين أنّ السيد تيمبو لم يكن غافلاً عن ألاعيبي، وأنّه يتذكّر أنّني طُردت في الفصل الأول لعدم دفع الرسوم.

وفـي وقـت لاحق، قُبِض على بعضـ الطلاب ممّن لـم يحملوا وصـولات، وفُصلِوا على رؤوسـ الأشهـاد، الأمر الذي زاد قلقي حيـال اللعبة التي كنت ألعبها. كنـت كلّ صباح أشعر بألم حادّ في المعدة، وكان الوضع سيئاً لدرجة أنّني كدت أعترف لوالدي كي أُنهي الموضوع.

كان غيلبـرت يوافينـي على الطريق، ثـمّ نأخذ نتجـاذب أطراف الحديـث بخصوص ألاعيبي، وذلك على سبيل التندّر والفكاهة:

– صباح الخير يا صديقي. أنا سعيد لرؤيتك تحاول أن تجرِّب حظّك مرّة أُخرى.

– صحيح، لنأمل ألّا تكون النهاية اليوم.

– التزم الصمت، واخفض رأسك.

– أعتقد أنّك محق.

أخيـراً، وبعد أسبوعين، كشف المدرِّسون أمـري؛ إذ تلا السيد تيمبو في ذلك الصباح أسمـاء المتخلِّفين عن الدفع بصـوت عالٍ داخل الصف، فكُشِف أمـري. وحين ذكر اسمي، وقفـت، ثمّ توجّهـت إلى الباب، قائلاً: **لقـد دفعت يا جماعـة،... لكنّني نسيـت الإيصال. لا تقلقوا، سأحضره وأعود حالاً....**

وحالمـا خرجت هممت بالبكاء، ثمّ ذهبت إلى البيت، وأخبرت والدي بما حدث، فقال: **كنت أتوقع حدوث ذلك، لكنّني لم أعرف الوقت بالتحديد.**

وحتـى لا يفطـر والدي قلبـي، فقد ذهب لمقابلـة السيد تيمبـو مُتوسِّلاً بـدلاً منّي؛ إذ كان التبـغ سيجف وينضج خـلال أسابيع، وكان لدى والدي أمل ضئيل بـأن يتبقّى بعض منه ليبيعـه في المزاد، ويدفـع رسوم المدرسة بعد سداد الدائنين الذيـن أعطونا الذرة بضمان محصولنا.

توسَّـل إليه قائـلاً: **سأحصل على المال عن قريـب، أرجو أن تدعـه يدرس في الصف حتى ذلك الوقت.**

تحدث السيد تيمبو إلى عدد من المدرِّسين الآخرين، فوافقوا على إبقائي في المدرسة ثلاثة أسابيع أُخرى، وهو وقت كافٍ يمكن لوالدي فيه أن يبيع محصوله من التبغ.

كانـت تلـك الأسابيـع الثلاثة رائعة، فقـد شعرت فيهـا بالحظوة والنشـوة كأنّني فزت بجائـزة؛ إذ لـم أعد في حاجة إلـى التسلّل، ولم تعـد معدتي تؤلمني. وأصبـح بإمكاني الآن الاسترخـاء والتعلّـم والمشاركة في أثنـاء الحصص، فضلاً على الضحـك بأعلى صوتي في حال أطلق المدرِّس نكتة ما: **يا إلهي، كم هذا مضحك!.**

وكنت كلّما قال المدرِّس نقطة مهمة قلت **نقطة مهمة، لم أكن أعرف هذا من قبل!.**

كان الطلاب يرمقونني بصورة غريبة، لكنّني لم أُلقِ لهم بالاً.

كانوا يقولون: **كان يتظاهر بالهدوء والرزانة في الأسابيع الماضية، لكنّ الحال تغيّر الآن. ما الذي أصابه؟.**

مـع انتهاء مهلة الأسابيع الثلاثة، أصبح التبغ جافّـاً؛ إذ تحوّل لونه تحت أشعة الشمس إلـى البنـي الفاتح. ومـا إن حدث ذلك حتـى ظهر الجانـب السيئ منه، حيث بـدأ الدائنون يتوافدون إلى بيتنا للحصول على أموالهم.

قال أحدهم: **أتيت للحصول على حقي؛ خمسين كيلوجراماً.**

وسأل آخر: **وَفقاً للاتفاق الذي عقدناه فيما مضى، هل كمية التبغ خاصتي جاهزة؟.**

ومـع مغادرة آخر تاجـر جارّاً درّاجته الهوائية المحمَّلة بتبغنـا، بقي لدينا حُزمة وزنها خمسـة وستون كيلوجراماً معلَّقة في العريشة. وقد حمّلها والـدي في شاحنة، ثمّ أخذها إلى المـزاد في ليلونغوي، حيث حصل على ثمانين سنتاً أمريكيّاً تقريباً لكلّ كيلوجرام. ولكن، لم يكـن هنالك سوى خمسين كيلوجراماً تصلح للبيع من مجمـل الخمسة والستين كيلوجراماً. عاد أبي إلى البيت بألفي كواتشا تقريباً بعد دفع أجرة النقل والضرائب الحكومية (نحو7 %). كان المبلـغ كافياً لدفع الرسـوم المدرسية. ولكن، لن يتبقّى حينهـا أيّ مال لشراء حاجيات البيـت الضروريـة، مثل: زيت الطهي، والملـح، والصابون، أو حتى الـدواء إن مرض أحدنا. أصبحنا مفلسين مرّة أخرى.

حاول والدي التفاوض مع السيد تيمبو مرّة أخرى، لكنّ السيد دبليو. إم. بهيري كان قد منع عودتي أصلاً. كان وزير التعليم يزور كثيراً من المدارس ليتأكّد أنّ الطلاب جميعهم قد دفعوا الرسوم.

قال السيد تيمبو: **إن كُشِفنا فقد يُطرَد بعضنا من عملهم.**

كنـت أجلس على كرسي في الساحة عندما عاد والدي حاملاً النبأ السيئ. كانت عيناه شاحبتيـن وقلقتيـن، كأنّه تصارع للتو مـع شبح. ميَّزت النظرة التي علـت وجهه؛ فهي نظرة أعرفها جيداً.

قال والدي: **لقد بذلت قصارى جهدي يا بنيّ، لكنّ المجاعة قضت على كلّ شيء.**

جثـا أمامي وواجهني: **أرجو أن تتفهّم ظروفي يا بنيّ. بيباني كوامبيري. والدك بذل كلّ ما في وسعه.**

واجهت صعوبة في النظر إليه، ثمّ قلت: **تشابوينو، أنا متفهّم للوضع.**

وفي واقع الأمر، إذا كان الموضوع يخص إحدى البنات، فإنّ والدي كان مستعدّاً لتزويجها برجل يستطيع تأمينها بالطعام والمسكن، كما حدث مع شقيقتي آني، أو حتى مساعدتها على إكمال الدراسة. لكنّ الأمر مختلف مع الأبناء. فقد كان تعليمي يعني شيئاً كثيراً بالنسبة إلى والدي. وقد أخبر والدتي تلك الليلة أنّه خيَّب أمل ابنه، بقوله: **لقد فشلت أمام عائلتي كلّها اليوم.** صحيح أنّ والدي لم يكن سبب المجاعة أو العسرة التي مرّت بها عائلتنا، لكنّني لم أستطع أن أنظر إليه وجهاً لوجه في الأسبوع اللاحق؛ إذ كنت كلّما نظرت في عينيه رأيت المستقبل الذي ينتظرني.

بدأت أسوأ مخاوفي تتحقّق؛ إذ سينتهي بي المطاف مثله تماماً، مجرّد مُزارِع مالاوي فقير، نحيل، متسخ، يعمل في الأرض بيدين خشنتين كالحيوانات، وقدمين حافيتين على الدوام. لقد أحببت والدي واحترمته كثيراً، لكنّني لم أرغب في أن أصبح مثله؛ لأنّني إن فعلت، فلن أقرِّر مصيري بيدي، بل سيتحكّم فيَّ المطر، وسعر، السماد، والبذور. سأفعل ما يتعيّن على كلّ مالاوي فعله، ما تُخبِّئه لنا القدر جميعاً؛ سأزرع الذرة. وإذا حالفني الحظ، سأزرع بعض التبغ أيضاً. وفي حال كان محصول الموسم جيداً وتبقّى فائض منه للبيع، فسأتمكّن من شراء بعض الأدوية وحذاء جديد. لكنّني أعرف أنّ ما سأحصل عليه – في معظم الأوقات – لا يكاد يكفيني للعيش. لقد حُدِّد مستقبلي منذ هذه اللحظة، ومجرّد التفكير فيه الآن يصيبني بالغثيان. ولكن، ماذا يمكن أن أفعل؟ ليس لي من حيلة سوى قبوله.

لم يكن لديّ وقت أُضيِّعه في التخبّط والحزن؛ فالذرة كانت جاهزة، ووالدي يحتاج إليّ لأساعده في الحقول. ذهبت إلى الحصاد وكثير من المشاعر تتنازعني. كنت مقتنعاً أنّني لن أعود إلى المدرسة مجدّداً، وبدا أنّ الدخول بين صفوف الذرة مثل الاستسلام، إنّه شبيه بدخولي السجن وإقفال بابه بنفسي. ومع ذلك، فقد كنت سعيداً؛ لأنّنا سنحصد طعامنا أخيراً.

كان الحصاد – وما يزال – مناسبة رائعة، ووقتاً جميلاً لتذكّر الصباحات التي كنت أشعر بعبقها حينما أفيق الساعة الرابعة والعناكب تملأ المرحاض، والضباع تسرح في

الحقـول. لـم أنسَ قطّ ما بذلته من جهد مُضنٍ في حفر الأثـلام، والزراعة، ونزع الأعشاب، والأيام الطوال تحت لهيب الشمس. كنّا نقضي النهار كله نحصد برضا، ثمّ ننام في المساء كأسد رابض بعدما ملأ معدته بالطعام. إنّ الحصاد هو الوقت الأمثل لتذكّر التضحيات.

في ذلك الوقت، وبعد محنة استمرّت عامين، كأنّنا مشينا في الصحراء بحثاً عن أرض الكنعانيين، ليعتقنـا الله من الاستعباد ويمنحنا الجائزة الكبرى؛ محصولاً وافراً من الذرة، وهو أفضل ما حصلنا عليه منذ سنين.

واصلنا العمل أسبوعين كاملين. كنّا نمشي بين الصفوف مستلّين حرابنا لقطع السيقان الطويلـة ووضعها على الأرض. ثمّ يأتي من خلفنا شخص يجمع ما بين خمس وعشر سيقان، ثـمّ يضعها بين الصفوف. بعد ذلك، كنّا نجمع الأكوام الصغيرة، ثمّ نكوِّمها في أكوام كبيرة تُدعى **مكوكويس**، حيث تستقيم كلّ منها معاً لمنع النمل الأبيض والفئران من أكل العرانيس.

كان لدينـا أربع مكوكويس ضخمة مع نهاية الشهر، وهـي أكبر كمية حصلنا عليها منذ مواسـم عـدّة. وقفت مـع والدي متأمّليْـنِ تلك المكافـأة الكبيرة بإعجاب، ثـمّ قلت: **هذا لا يصدَّق.**

قـال والـدي: **أعرف، ما زلنا نحظى بهذه البركة كلّهـا؛ حتى بعد مـا أُكل أو فُقد من ذلك الدوي. انظر إلى هذه الذرة كلّها.**

قلت: **يا له من حصاد!.**

نزعنا عرانيس الذرة عن السيقان، ثمّ كدّسناها في كومة، ثمّ نقلناها إلى البيت بعربة يجرّهـا ثـور. وقد دفعنا لمالك الثور ذرة، وكذا لصاحب المتجر الذي باعنا المبيد الحشري لمكافحـة السوسـن. وفي الأسابيع القادمـة، أمضينا أياماً بطولها جالسيـن في باحة البيت، بجانـب أكـوام من العرانيس، ننزع عنهـا الحبوب لنملأها في أكياس. وكنّـا في هذه الأثناء نستمع إلى المذياع، ونتحدّث عن حالة الطقس. لقد أخذت الحياة تعود إلى طبيعتها.

مَـلأَتْ أكياسُ الحبوب المخزنَ من جديد، ومالت مليئة ثقيلة على الجدار. كانت كثيرة لدرجة أنّها عانقت السقف، وفاضت في الممرّ. إيضاً، نضج بعض فول الصويا في حديقتنا،

ما يعني أنّه أصبح بإمكاننا العودة لتناول وجباتنا كالمعتاد. لقد بدأنا – تدريجيّاً – نستعيد الوزن الذي فقدناه في أثناء المجاعة.

قالت والدتي لوالدي: **كنت تبدو نحيلاً أيّها الأب.**

فمازحها والدي قائلاً: **وأرى أنّك بدأت تعزدين كما كنت أيّتها الأم. أمّا أنت يا ويليام، فكنت أخشى أن تهب الرياح وتحملك معها إلى الحقول.**

أصبحنا نضحك الآن عند تذكّر ما جرى؛ فنحن لا نولي الأوقات الصعبة بالاً إلّا في زمن الرخاء.

انتهى موسم الحصاد أخيراً، وأصبح بإمكاني العودة إلى ساحة الخردة، ومتابعة البحث عن قطع أُخرى لصنع طاحونة الهواء خاصتي. كنت أجد قطعة بين الأعشاب وألتقطها قائلاً لنفسي: **ما هذا؟!**، لأرى قطعة أُخرى تثير اهتمامي أكثر. كنت يوماً أبحث بين العشب، فوجدت مبدِّل سرعات لسيارة دفع رباعي. خلعته بمفكي لأجد بداخله كمية كبيرة من شحم المحرّكات الأسود، فكشطته، ثمّ وضعته في كيس بلاستيكي؛ لأستعمله فيما بعدُ. ووجدت بعض الأسافين والأسلاك، إضافة إلى أشياء أُخرى لن أحتاج إليها في الأرجح، مثل: دوّاسات مكابح، ومقابض علب تروس، وعمود مرفق صغير لمحرّك سيارة. لقد أخذتها جميعاً إلى البيت على أيّ حال.

كنت محظوظاً بإيجاد أكبر قطعة تلزمني هناك في البيت؛ إذ كان لوالدي درّاجة هوائية معطّلة، رَكَنها في غرفة المعيشة، ولم يحرِّكها قطّ. لم يكن فيها مقود، بل عجلة فقط، فضلاً على إلى هيكل صدئ كالقطع الموجودة في ساحة الخردة. وكنت قد عرضت عليه إصلاحها أكثر من مرّة، لكنّه كان يقول دائماً: **لا يوجد لدينا مال لذلك.**

في اليوم الذي قرّرت فيه أن أطلب من والدي استعمال درّاجته، جلست معه وشرحت له تفاصيل العملية كلّها، وكيف أنّ هيكل الدرّاجة يمكن استخدامه جسماً مثاليّاً للطاحونة الهوائية، وأنّه سيكون متيناً بحيث يتحمّل الرياح الشديدة. أخبرته أيضاً أنّ الرياح والشفرات ستعمل بوصفها دوّاسات لتحريك الذراع والدولاب المسنّن، وأنّ السلسلة ستلفّ العجلة ومولِّد الطاقة. ثمّ قلت وقد ارتسمت على مُحَيّاي ابتسامة عريضة: **كهرباء! ماء!**.

اكتفى والدي بهزّ رأسه، قائلاً: **أرجوك، لا تكسر درّاجتي يا بنيّ. لقد فقدت كثيراً من أجهزة المذياع. إضافة إلى أنّنا سنستعمل تلك الدرّاجة يوماً ما.**

قلت لنفسي: **لماذا نستعملها؟ لنقودها مسافة سبعة كيلومترات من أجل شراء الكاز، في الوقت الذي يمكننا فيه توفير الإضاءة مجّاناً!**. تطلّب الأمر وقتاً طويلاً؛ لأقنع والدي بالتخلّي عن تلك الدرّاجة. فقد توسّلت ساعة، ثمّ شرحت العملية مرّة أُخرى، وأوشكت أن أُعيد تجميع الطاحونة الهوائية التي صنعتها من المذياع مرّة أُخرى لأقنعه بجدوى العملية.

قلت له: **لديَّ خطة، دعني أحاول، فكّر في الأمر، يمكننا الحصول على مصدر للنور! يمكننا ضخّ الماء والحصاد مرّتين. لن نجوع مرّة أُخرى.**

فكّر للحظة واستسلم أخيراً، قائلاً: **حسناً، ربّما تكون محقّاً. ولكن، حاول ألّا تفسدها.**

فرحت كثيراً لحصولي على الدرّاجة. فأخذتها إلى غرفتي، وسندتها إلى الجدار قرب بقية القطع. وسرعان ما أصبحت غرفتي هي الأُخرى تبدو كساحة خردة بسبب القطع التي كنت أجمعها. كانت قطع الطاحونة الغالية جميعها مرتّبة بأناقة في أحد جانبي الغرفة (مخفّف الصدمات، ومروحة الجرّار، والمساند)، وكانت القطع الصغيرة مفصولة عن الكبيرة لتسهيل عملية الجرد. أمّا ما تبقّى من حيّز فكان مغطّى بخردة إضافية كنت قد جمعتها؛ إذ تجمّعت أكوام من القطع العشوائية المعدنية والقديمة في الزوايا، وحول السرير، وخلف الباب. لم أكن أعرف ما يلزمني منها تحديداً.

وحين منعت شقيقاتي من كنس غرفتي أو تنظيفها؛ خشية العبث بكنوزي، أو رمي أيٍّ منها، احتجت عائشة قائلة: **ولكن، علينا تلميع الأرضية.**

فصرخت: **لن أسمح لأحد بالدخول. سأخبركنّ إذا غيَّرت رأيي!**.

كنت أقضي جُلّ وقتي في ساحة الخردة، أو المكتبة، أو على أرجوحتي الشبكية وأنا أتصفّح بعض الكتب. صحيح أنّ والدي لم يفهم فكرتي لبناء الطاحونة، لكنه كان يشعر بالأسى حيال عدم ذهابي إلى المدرسة. لذا، لم يجبرني بعدها على الذهاب إلى العمل في الحقول. وقد أخذت شقيقاتي يغرن منّي بسبب ذلك.

سألَتْ دوريس والدي يوماً ما: **لماذا يُسمَح لويليام بالبقاء في البيت من دوننا؟ هل مردّ ذلك أنّه صبي ونحن فتيات؟ إذا بقي في البيت فسنبقى نحن أيضاً!.**

فردّ والدي: **لدى ويليام مشروع، وسنرى في نهاية المطاف، أكان ذلك مضيعة للوقت أم لا؟ أمّا أنتنّ يا فتيات فالتفتن إلى شؤونكنّ واذهبن إلى العمل.**

قلن بغضب: **بأمرك يا أبتِ.**

أصبح وقت الصباح والظهيرة مخصّصاً للدراسة بفضل بركات والدي. وحينما كنت أُخطط لصنع الطاحونة، أنعمت النظر في فصول من كتاب (**شرح الفيزياء**)، تتعلق بالكهرباء، وحركتها، وطبيعة صفاتها، وكيفية تطويعها. إضافة إلى ذلك راجعت أجزاء تتحدث عن التمديدات المنزلية، وأوجه الاختلاف بين الدارات؛ المتوازية والمتوالية، وقرأت مزيداً من المعلومات عن التيارين؛ المتناوب، والمباشر.

وفي هذه الأثناء، كنت أُواظِب على ارتياد المكتبة، مُجدِّداً استعارة الكتب الثلاثة نفسها مراراً، الأمر الذي أثار استغراب السيدة سيكيلو، ودفعها إلى القول: **هل تحضّر للامتحانات يا ويليام؟ ما الذي تنوي فعله؟**

أجبت: **لا شيء، سأبني شيئاً فقط، سترين.**

أصبح الذهاب إلى ساحة الخردة مرّة تلو الأُخرى يشغل تفكيري عن المدرسة؛ إذ كانت بيئة أتعلّم فيها شيئاً جديداً كلّ يوم. فقد شاهدت هناك كثيراً من المواد الغريبة والمُصنَّعة في الخارج، وحاولت تخيّل أوجه استعمالاتها. ومن ذلك: أداة بدت كالضاغط القديم، أو أشبه باللغم الأرضي. وقد عثرت على ضاغطات حقيقية فهززتها؛ لأسمع صوت قطعها الداخلية تقعقع، ثمّ حاولت فتحها واستكشاف كُنْهها من الداخل. كان خيالي نشطاً على الدوام. فقد تظاهرت يوماً أنّني ميكانيكي ماهر، أزحف على ظهري تحت السيارات والجرّارات القديمة والصدئة، محاطاً بالعشب الطويل. ثمّ صرخت موجِّهاً كلامي للزبون: **شغّل! لنسمع الصوت الصادر منها... اضغط على دوّاسة الوقود، لا تخجل... ما هذا! هذا أكثر من اللازم!.**

لم يكن المحرّك على ما يرام. لذا، أخبرته عن الوضع بصراحة: **يبدو أنّ سيارتك في حاجة إلى إصلاح شامل. أعرف أنّه مكلف. ولكن، هذه هي الحياة.**

بعد ذلك، صرخت على صبياني الذين اعتادوا الركون إلى الراحة، وغلب عليهم طابع الكسل: **ستتولّى تغيير الزيت اليوم يا بهيري!.**

يردّ بهيري: **حاضر أيّها المعلّم.**

دخل آخر يهزّ رأسه. يبدو أنّ هنالك مشكلة خرى.

– سيد كامكوامبا، أيّها المعلّم، لا يمكننا إصلاح هذه السيارة. لقد جرّبنا كلّ شيء، لكنّها ما زالت تُصدِر ضجة. بماذا تنصحنا؟

– شغّلها، حسناً... كما توقّعت تماماً. إنّها مضخة حاقن الهواء.

– شكراً سيدي!.

– على الرحب والسعة.

وبعد أن أفقت من أحلام اليقظة هذه، صعدت على متن جرّارات قديمة صدئة، ثمّ ضغطت على أزرار التشغيل بقدمي، وتظاهرت أنّني أقودها، قائلاً: **افسحوا الطريق، يجب أن يعمل رجلكم كامكوامبا!.**

ثمّ تخيّلت نفسي وأنا أحفر الأثلام في حقلي بوساطة جرّاري، مُعوِّضاً الأيام كلّها التي قضيتها وأنا أحفر بمعولي تحت أشعة الشمس الحارقة. يا إلهي، كم تمنيت لو يعمل أحد هذه الجرّارات ويتحرّك. لو قُدِّر لذلك أن يحدث، لكنت أخذت ما في ساحة الخردة إلى البيت.

لم يكن مزاجي الحسن يدوم طويلاً حتى لو طافت بي خيالاتي في ساحة الخردة بعيداً. وكما ذكرت آنفاً، فإنّ ساحة الخردة كانت مقابل مدرسة كاتشوكولو المتوسطة مباشرة. لذا، كان باستطاعة الطلاب مشاهدتي من ساحة المدرسة بسهولة في أثناء طرقي على المعادن، أو حتى في أثناء حديثي مع نفسي. وحين كنت أغادر حاملاً أجزاء طاحونتي، كانوا يصرخون قائلين: **انظروا، إنّه ويليام يفتّش في القمامة مجدّداً!.**

حاولت في البداية أن أشرح لهم موضوع الطاحونة، لكنّهم سخروا منّي، قائلين: **إيوي! أنت تضيّع وقتك. هذه الخردة لا تصلح لشيء.**

وحتى في الأيام التي حاولت فيها أن أتسلّل من دون أن يراني أحد، كان أحدهم حين يراني من النافذة المفتوحة، يصرخ قائلاً: **ها هو المجنون ذاهب لتدخين التشامبا!** (التشامبا هي الماريغوانا).

ولحسن الطالع، فقد كان لديَّ بعض المشجّعين والمناصرين. وفي المقابل، وافق جيفري على طلب عمي موسايوالي العمل في طاحونة القمح بتشيبومبا؛ ما يعني أنّ الشخص الوحيد الذي لم يضحك عليَّ، هو غيلبرت. وفي نهاية المطاف، قرّرت أنّه إذا سمعت أحداً يصرخ عليّ من ساحة المدرسة، قائلاً: **ما الذي ستفعله بهذه القمامة يا ويليام؟، فسأبتسم قائلاً: لا شيء، ألهو بها فحسب.**

لم يتوانَ هؤلاء الطلاب عن إخبار ذويهم بشأن الفتى المجنون في ساحة الخردة، وسرعان ما سمعت والدتي عن الأمر في السوق التجاري، فأصبحت تحدِّق إليَّ وتهزّ رأسها كلّما عدت إلى البيت حاملاً قطعي. وفي أحد الأيام، جاءت إلى غرفتي، وكانت تبدو قلقة، ثمّ قالت: **ما الذي دهاك؟ أصدقاؤك لا يماثلونك في الصفات. إنّك لا تجد مثل هذه الأشياء في بيت غيلبرت. انظر إلى غرفتك! إنّها تبدو مثل غرفة رجل مجنون. وحدهم المجانين يجمعون القمامة.**

قالت لوالدي تلك الليلة: **لن تقبل أيّ فتاة الزواج به إذا بقي على هذه الحال. وحتى إذا وجد واحدة، فكيف له أن يرعاها ويطعم عائلته؟**

قال والدي: **دعي الفتى وشأنه. ولنراقب ما سيفعل.**

وعلى مدار الأسابيع اللاحقة، أصبحت الخردة تُظهِر نفسها مثل أحجية سحرية. وقد أدركت عند نقطة ما أنّني في حاجة إلى مزيد من الأنابيب البلاستيكية. لذا، فقد غافلت أنا وغيلبرت والده، ونزعنا أنبوب التصريف من غرفة الاستحمام خاصتهم. كان مغطّى من الداخل بطبقة سميكة من الطين، فأزلتها بأصابعي. كانت الرائحة فظيعة.

وحالما جفّ وأصبح نظيفاً، أخذته إلى البيت، ثمّ قصصته عموديّاً بمنشار قوسي. بعد ذلك، أشعلت ناراً في العشب خلف المطبخ، ثمّ رميت الأنبوب في اللهب. وحين بدأ يسيح ويذوي، أخرجته وضربت عليه لأجعله مسطّحاً، ثمّ قصصت منه أربع شفرات، طول كلّ منها أربع أقدام. وحينما أردت وصلها بدوّار مروحة الجرّار، لم أجد في الغرفة أيّ صواميل أو مسامير. لذا، قضيت الأسبوعين اللاحقين في ساحة الخردة أُفتِّش في القطع المعدنية كلّها. كان لدي مفتاح ربط أحادي المقاس، لكنّه كان أكبر من معظم الصواميل الموجودة في الآلات. فاستعضت عنه بلفّ مبرق درّاجة هوائية داخل فم المفتاح، وتمكّنت بذلك من فكّ بعض منها. ولكن، كانت معظم الصواميل متآكلة بفعل الصدأ لدرجة جعلتها لا تتزحزح من مكانها.

عرض علي غيلبرت المساعدة، فذهب إلى متجر داوود حاملاً خمسين كواتشا، واشترى كيساً كبيراً من الصواميل والمسامير. شعرت ببسعادة كبيرة حيال ما فعله. لكنّني لم أكن أملك مالاً أدفعه إلى الحدّاد، لكي يلحم القطع معاً. وأخيراً، حالفني الحظ في أحد الأيام حينما كنت في السوق التجاري؛ فعندما كنت هناك ألعب الباوو مع بعض الأصدقاء، أوقف رجل شاحنته. كان قادماً من كاسونغو، ويحتاج إلى بعض الفتية لمساعدته على تحميل الحطب.

قال: **سأدفع مئتي كواتشا لقاء ذلك.**

ركضت إليه ملوِّحاً بذراعيّ: **أنا مستعد للعمل، فطلب إليَّ أن أركب في الجزء الخلفي من الشاحنة، لأنضم إلى عشر فتية آخرين قالوا لي: اعمل بجدّ يا فتى الغانيو!**، في إشارة إلى الحظ الذي حالفني. وحين وصلنا إلى موقع العمل، أمضيت وقت الظهيرة وأنا أرمي الحطب في الشاحنة، والعرق يتصبّب منّي من جرّاء أشعة الشمس الحارقة. ومع ذلك، فقد كنت سعيداً فرحاً؛ إذ لم أشعر بلذة العمل من قبلُ إلّا في هذا اليوم.

حصلت في ذلك اليوم على مئتي كواتشا دفعتها إلى الحدّاد، لكي يلحم مخفّف الصدمات بالعجلة المسنّنة؛ لتتمكّن من الدوران. كنت أريده أيضاً أن يُحدِث ثقوباً في شفرات مروحة الجرّار؛ لكي أتمكّن من تثبيت شفرات الطاحونة.

يقـع متجر السيد غودستين فـي المركز التجاري قرب صالـون إيبونغا للحلاقة، وكان يتكـوّن فقط مـن عريشة مغطّاة بالعشب. ومـع أنّني كنت أملك مالاً، فـإن غودستين ضحك عندما دخلت عليه حاملاً قطعي.

سأل بسخرية: **تريد منّي أن ألحم مخفّف صدمات مكسور بدرّاجة هوائية ذات عجلة واحـدة؟**. كان هنـاك آخـرون يلعبون الباوو تحت شجـرة التين، فسمعوا ما جـرى، ثمّ قالوا مُعلِّقين:

– ها هو ذا الرجل المجنون قد أتى حاملاً قمامته. لقد سمعنا عنك من قبل.

– إنّه ليس رجلاً، إنّما مجرّد صبي صغير يلعب بالدمى. إنّه ميسالا (ميسالا تعني المجنون).

وكنت قد سئمت من سماع تلك الكلمات، فقلت: **هذا صحيح. أنا ميسالا كسول، لكنّني أعرف ما أفعل، وسترون جميعكم عمّا قريب!.**

واصلوا الضحك على أيّ حال. استدرت بعدها لغودستين، قائلاً:

أمّـا إجابـة سؤالك يا سيدي فهي نعم. الـحِـمْ مخفّف الصدمات بالدرّاجة الهوائية، واحرص على أن تلحمه من المنتصف»

عندما انتهى العمل، أعدت الدرّاجة الهوائية إلى غرفتي، وسندتها على الجدار. تفهّمت الآن سبب قول الناس إنّها تبدو كشيء صنعه رجل مجنون؛ إذ كان مخفّف الصدمات بارزاً من العجلـة المسنّنة، مثل ذراع رجل آلي غريب الهيئـة، بمفاصل ملحومة بمعدن مذاب وضارب إلـى السواد. وكانت الشفرات إلـى جانبه طويلة جميلة، بسطحهـا الأبيض المحروق المليء بالفقاقيـع، مثـل غشاء المارشملو المحـروق. أيضاً كان هناك أكياسـ تحتوي على صواميل ومسامير وكتل من الشحم معلَّقة في سلسلة الدرّاجة. من جانبها، بدت مروحة الجرّار كنجم برتقالي متوهّج على وشك أن يدور في الظلام. كنت مشتاقاً لتركيبها معاً.

وعلى الرغم من التصميم الرائع الذي كنت أملكه، فإنه كان ينقصني شيء؛ شيء كبير. فقد تمكّنت من إحضار القطع جميعها باستثناء المولِّد. فكيف لي أن أحصل على هذه القطعة الثمينة والمهمة؟ لم تكن عائلتي تملك أيّ مال، ولم أطلب من والدي ذلك؛ حتى إنّني لم أجرؤ على مطالبته بشراء المولِّد الموجود في متجر داوود.

فكّرت بعدها في صنع مولِّد ذي تيار متناوب بنفسي. وعرفت من البحوث التي قمت بها أنّني في حاجة إلى أشياء بسيطة، مثل: المغناطيس، والمسامير، والأسلاك. ولكن، لم يكن من السهل إيجاد هذه المواد. لم أكن أعرف القياس المناسب للسلك المعزول الذي سأستخدمه للبكرات الكهرمغناطيسية. وقد عَنَّ لي أن أُفكِّك مذياعاً، وآخذ الأسلاك الموجودة في محرّكه، لكنّ فولتية تلك المحرّكات منخفضة، ما يعني أنّ أسلاكها قصيرة ونحيفة.

أمضيت الأسابيع اللاحقة في ساحة الخردة أُقلِّب هياكل السيارات الصدئة وأكواماً من الألواح المعدنية المثلّمة، وأحفر بين العشب الطويل بحذر على أمل إيجاد مولِّد بين الخردة لم أكن قد رأيته من قبل، أو مولِّد سيارة أستخدمه بعد تعديله، أو مولِّد درّاجة هوائية. لكن الحظ لم يكن حليفي. ولسوء الطالع، لم أكن الشخص الوحيد الذي يبحث عن مواد مثل هذه؛ إذ دأب نفر من الصبية الصغار، ممّن اكتشفوا أهمية المحرّكات الكهربائية، على المجيء إلى المركز التجاري، وكان شغلهم الشاغل هو تعرية البكرة من أسلاكها النحاسية، ثمّ استخدامها في بناء شاحناتهم الصغيرة.

وقد صادفت بعضاً منهم في أحد الأيام لدى دخولي ساحة الخردة. ولكن، ما إن صرخت عليهم: أنتم!، حتى فرّوا هاربين. لا أعرف سبباً لخوفهم على هذا النحو. ربّما سمعوا قصصاً عن الرجل المجنون الذي يدخِّن التشامبا. لذا، خافوا على أنفسهم. على أيّ حال، حين وصلت المكان الذي كانوا يقفون فيه، نظرت إلى أسفل، فوجدت محرّكاً مثاليّاً، لكنّه كان مُعرّى من الأسلاك، ومُلقى مثل فيل منزوع النابين، ومرمي في الطين.

بدأت أخشى من ذهاب حلم بناء الطاحونة الهوائية أدراج الرياح بسبب عدم توافر مولِّد. وكنت كلّما شاهدت محوّلاً مثبَّتاً بدرّاجةِ أحدٍ ما (يكون عادة معطّلاً، أو غير موصول

بلمبة)؛ كنت أقول لنفسي: **يا إلهي، يا لها من خسارة! أعطنيه وسأريك الطريقة الصحيحة لاستخدامه.** وكنت قد شاهدت كثيراً من المحوّلات في تلك المدة، لكنّني لم أكن أعرف أولئك الناس، ولم أجرؤ على إيقافهم، بل كنت أستيقظ كلّ صباح، ثمّ أنظر إلى الكومة المعدنية الملقاة في زاوية غرفتي، ثمّ أذهب لمساعدة والدي في تنظيف الحقول. لقد كان النظر إلى القطع أسهل في أثناء الليل،؛لأن أنّ كلّ شيء يختفي في الظلام.

مرّ زهاء شهر وأنا أحاول العثور على مولِّد ما. وفي أحد أيام الجمعة من شهر تموز، كنت أسير أنا وغيلبرت عائديْنِ من المركز التجاري نحو البيت، فسألني: **كيف يسير العمل بخصوص الطاحونة الهوائية؟**

رددت: **لديّ كلّ شيء ما عدا المولِّد. إذا أمكنني الحصول على واحد فسأبنيها غداً. أخشى ألّا يتحقّق حلمي.**

قال: **أنا آسف لذلك.**

وفي هذه الأثناء، مرّ بنا فتى يدفع درّاجته الهوائية. لم أكن قد رأيته من قبل، لكنّه كان يماثلِنا في السنّ تقريباً. نظرت إلى أسفل في أثناء مروره، ولاحظت شيئاً مألوفاً لمّاعاً بجانب الإطار، فقلت: **انظر يا غيلبرت، إنّه مولِّد آخر.**

كنت حينها قد تخلّيت عن خجلي منذ مدّة، فركضت باتجاه الفتى طالباً إليه رؤية درّاجته. انحنيت، ثمّ لففت الدوّاستين بقوّة، فأضاء المصباح (كان لمبة سيارة قديمة) الأمامي، فصرخت: **إنّه مثالي.**

التفت غيلبرت إلى الفتى، قائلاً: **بكم تبيع هذا المولِّد؟**

قلت: **لا يا غيلبرت. ليس لديّ...**

سأل غيلبرت: **بكم؟**

رفض الفتى في البداية، لكنّه وافق في نهاية المطاف. كان الجميع أذكى من أن يرفضوا مالاً آنذاك.

قال الفتى: **مئتا كواتشا مع اللمبة.**

قال غيلبرت: **لقد أعطاني والدي بعض المال. فلنشترِ به المولِّد، وننتهِ من بناء الطاحونة.**

كان والد غيلبرت قد وزَّع معظم طعام العائلة في أثناء المجاعة، ولم يكن يقوى على الزراعة بسبب ظروفه الصحية. كنت متأكِّداً أنّ مالهم قد أوشك على النفاد. ولكن، مع ذلك، فقد اشترى غيلبرت الصواميل والمسامير؛ لتثبيت الدوّار، وها هو ذا يمدّ يده في جيبه مجدّداً، ويُخرِج مئتي كواتشا (ورقتان حمراوان)، ثمّ يعطيها للفتى. حاولت نزع المولِّد واللمبة عن الدرّاجة، وقد استغرق ذلك بعض الوقت، لكنّني نجحت أخيراً في مسعاي، وأصبحتا في يديّ.

قلت: **زيكومو كوامبيري يا غيلبرت، شكراً جزيلاً لك، أنت أفضل صديق لديّ.**

عاد غيلبرت إلى بيته. أمّا أنا فركضت نحو غرفتي، ثمّ وضعت المحوّل بجانب بقية المواد. كان ذلك كإضافة آخر قطعة من أعظم أحجية في حياتي. وفي اللحظة التي فعلت بها ذلك، هبّت رياح قوية فتحت الباب، ودارت كالزوبعة في الغرفة، ثمّ ضربت القطع بأذرعها، لتظهر الآلة بصورتها النهائية وبشفراتها التي دارت بسرعة خلال غشاوة من غبار أحمر. ربّما كان ذلك مجرّد حلم.